الطريق إلى الله

شبهات حول التصوف

للأستاذ السيد محمد الحافظ التيجاني

٢

وأول شبهه اعترض بها المعترضون أن اسم الصوفية لم يكن موجوداً فى زمن الصحابة رضوان الله عليهم .

وفى زمن الصحابة لم يكن البحث فى عقائد الإسلام ودفع غارة أعداء الإسلام عنها يسمى توحيداً ، ولم يكن قد دونت كتب المد والغن والإخفاء والإشمام مما اصطلح عليه علماء القراءات . كل ذلك مصطلحات لم تعلم فى زمن الصحابة .

ولم يكن تقسيم الأحكام الشرعية إلى حلال وحرام ومندوب ومكروه فى زمن الصحابة أيضاً ، وهذه أمور اصطلاحية حادثة بعدهم . وكان معنى الفقه فى زمن الصحابة رضوان الله عليهم يشمل أصول الدين وفروعه ، ومنها علم تزكية النفوس وتطهيرها من الأدران والظلمات وعلم مجاهدة النفس والهوى ، وهذه هى التى نسميها (تبعاً لعلماء السلف) صوفية ، فليسمها أصحاب الأهواء ما شاءوا .

بل القرآن المنزل الذى هو الدين كله لم يكن فيه نقط ولا شكل ، فمن ظن أن كل مالم يكن فى عصر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعة فقد أبعد وأبعد عن الحق ، والحق أن كل ماله أصل فى الدين فيرجع إلى أصله وإن لم يكن موجوداً بعينه .

إن الصوفية فى كل عصرهم حملة

راية الإسلام فى التوحيد والحديث والفقه والتفسير واللغة وعلم الأخلاق وعلم التهذيب الروحى ، الذى هو روح الإسلام ولبه ، وكتب الطبقات شاهدة بذلك .

وقد سمينا علم التهذيب الروحى (بالصفاء) وسمينا أهله (صوفية) فيترك لك المتعنتون معنى التهذيب الروحى ويمسكون لفظ التصوف هل هو بدعه جاء من الشرق ؟ جاء من الغرب ؟ يا سبحان الله ! ! هذا هو العلم ؟ فأين الجهل إذاً .

والمعيار الحقيقى الذى يوزن به ما عليه الناس هو تصحيح العقيدة من شوائب الشرك حتى تكون ناصعة فى توحيد الله وتنزيهه والجزم بما جاء به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، والقيام بالفرائض والانتهاء عن المحارم الظاهرة والباطنة وتقويم الأخلاق والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله وفعله فى الفرائض والسنن ظاهراً وباطناً ، ومجاهدة النفس . فإذا كان هذا هو الدين ، فالذين يسمون بالصوفية هم أولى الناس بالدين وأولى الناس بالعلم والعمل والحال رغم أنف الشانئين الذين يفترون عليهم الأكاذيب من حلول واتحاد ووحدة وجود هندوسية أو نصرانية وغير ذلك من العظائم التى رموهم بهـا وهم ولله الحمد أبعد الناس عنها والصريح من كلامهم آية ذلك . وقد صرح الشيخ محيى الدين بعقيدته وهى العقيدة المعروفة عن السلف وذكر القشيرى وغيره اعتقادهم وهو عين ما عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عليه أهل السنة والجماعة .

وقد اتفقت كلمتهم على أن ما خالف الكتاب والسنة فهم منه بريئون ، وقد كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف لا يكذب عليهم . والميزان ما قالوه بأنفسهم ، إذا سمعتم عنا شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فاعملوا به وما خالف فهو كذب علينا ونبرأ إلى الله منه .

الشبهة الثانية : أن فى كلام بعضهم ما يفهم البعض منه حلول الله فى عبده أو التجسد أو الاتحاد بين الخالق والمخلوق التى يسمونها وحدة الوجود ، وفيما يذكر أن العارف يرى الله فى كل شىء ، قد فهم قوم — خطأ ، أن ذلك ضربا من الحلول ، ولا خلاف فى أن الحق سبحانه منزه عنه ، فإذا علمنا مقصد العارفين فى قولهم

هذا فقد زال الإبهام .

وفى اللمع وضح الإمام السراج نفى التجسد والحلول صريحاً والإمام القشيرى وكل الصوفية .

وظهور علم العالم فى الكتاب أوضح وأجلى وأثبت من الورق والمداد ، فليس من المعقول أن الورق والمداد كتب الكتاب بلا عالم .

فمصدر العلم عالم لا الورق ولا المداد ، وهذا أمر ضرورى يقينى لا يتطرق إليه احتمال ، وإن شئت فقل ظهور العالم فى الكتاب أظهر من الكتاب .

وظهور الصورة فى المرآة أوضح منه مصدر الصورة ، فإن الصورة إنما ظهرت وقامت بالأصل لا بنفسها ، وهذا أمر يقينى كذلك ، ولا أحسبنى فى حاجة إلى بيان أن الحق سبحانه منزه عن المحسوسات وشبهها ، فليس المراد قطعا ما يمت إلى الصورة الحسية بسبب وإنما المراد المعنى الذى أفاضه الحق فإنه سبحانه السميع البصير الحى العليم وظهرت آيات كماله فى الخلق فجعل منها حيا به ، سميعاً به ، بصيراً به .

فإذا قلنا إن الحق هو الظاهر فى الكائنات وأن ظهوره أوضح من الكائنات ، فهذا حق . لأن العالم الذى كتب الكتاب ما كتبه بنفسه، ولكن الله هو الذى علمه (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) فالواجب الذى له الوجود الذاتى هو سبحانه الظاهر ، إن شئت فقل علمه ظهر ، أو قل ظهرت ذاته بعلمها وقدرتها ، فهو اختلاف فى التعبير والحقيقة واحدة .

عباراتنا شتى وحسنك واحد
وكل إلى ذاك الجمال يشير

ودع من يتصور فى كلامهم رضى الله عنهم مالا يخطر ببالهم من التطورات الأرضية ، التى - هى من أشد المحالات استحالة عندهم .

ودوام هذا المشهد أعظم من الذكر باللسان ، فإن صاحب هذا المشهد كله ذكر لأنه فرح بقرب الحق ، بل قل بيوميته بالحق .

الشبهة الثالثة . أن التلميذ يطيع شيخه فيما يأمره ولو كان محرماً . وهذا غير صحيح فإن من اتبع شيخاً ما على أساس أنه إن أمره بالكفر بالله وترك الإسلام أو باستباحة المعاصى اتبعه فى ذلك فهو كافر خارج عن الإسلام هو وشيخه إذا كان يقره على ذلك . ولا

طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

أما إن دخـــل معه على أساس الإسلام بحيث يتبعه لأنه متبع لا مبتدع وأنه لو أمره بشىء من المخالفة يقينا فإنه لا يفعـله ، وإن كان يحسن الظن فيه فيحمل أمره به على زوال عقله .

وما جاء فى آداب التلميذ مع شيخه أن يتيمه فيما يأمره به ويطرح رأيه لرأى شيخه، إنما يصح ذلك فى الأمور التى يجوز أن يكون لها وجه يطابق الشريعة

والمسائل الخلافية التى جرى علماء الشريعة على أجازة الخلاف فيها بشروطه المعروفة فإنه يسع الصوفية فيها ما وسع الأمة .

وافرض جدلا أن إنساناً أحسن الظن فى دعى فى الطريق خفى عليه أمره ، فإن أساس الطريق أنه متى تبين له بالدليل أن ذلك المتبوع فى دائرة التكليف وأنه يستبيح المعصية ، فلا يتردد بالحكم عليه بالكفر والردة، ويبرأ إلى الله منه

وإذاً فالقاعـــدة التى يبنى عليها الاتباع بين أهل الطرق قاطبة هى قواعد الإسلام ، والدين الحق لا سواه . فما زال الكل فى دائرة الإسلام .

الشبهة الرابعة ، زعمهم أن الصوفية شأنهم التوكل وعدم الأخذ بالأسباب

قال الشيخ ابن عطاء الله - إرادتك التجريد مع إقامة الحق لك فى الأسباب من الشهوة الخفية

وإذن فمن الصوفية من أقيموا فى الأسباب .

وإذا كان المقصود التحقق بالصفاء الكامل فى الاعتقاد ، وفى العمل أن يخلو من الرياء والشبهات ، وفى الحال أن يتحقق بالحب والأدب مع الله عز وجل ، فمتى وصل العبد إلى هذه المنزلة فليس عليه جناح أن يزاول الأسباب المشروعة، ومن الممكن أن يجعل السالك له وقتاً خاصاً يتفرغ فيه لعبادة الله ويتجرد من شئون الدنيا ويقبل على الله بكليته مع أخذه بالأسباب من طلب الحلال لنفسه ولمن يعوله فى بقية وقته وفى الحديث القدسى من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، وأحب الأعمال إلى الله مادام عليه صاحبه وإن قل ، ومتى أخذ الله بيد عبد فإنه يشغله بحبه وهو قائم بما يحل له من العمـــل بل مراقبته لربه عز وجل تعينه على عمله وأن يتقى الله فيه . فيحسنه ويتقنه . فيكون أميراً يتقى الله ووزيرا يتقى الله وعاملا يتقى الله وحارساً يتقى الله.

ومن السادة الصوفية من كان خرازاً ومن كان تاجراً وما أمر الشيخ الخواص

يخفى على من قرأ تاريخ القوم والصوفى يصح أن يكون غنيا ، ولكن غناه بالله وليس فيهم كناز ولا بخيل .

وأما الجهاد فى سبيل الله فقد استشهد شقيق البلخى فى غزاة كولان من بلاد الترك سنة ١٩٤ هجرية وذكر ذلك ابن الأثير فى الكامل صحيفة ١٤٢ الجزء الخامس - وهو شيخ حاتم الأصم، سافر مرة وفى صحبته ثلاثمائة مريد ، وكان شيخ خراسان ، وذكر الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية خروج أحمد بن أبى الحوارى للرباط — جزء ١٠ صحيفة ٣٤٨ ، وغيرهما كثير فى كتب التاريخ ، وأما المتأخرون ، فقد ذكر الأمير شكيب فى حاضر العالم الاسلامى جهاد السيادة الصوفية ونشرهم الإسلام فى أفريقيا ومنهم الحاج عمر ابن سعيد الفوتى والشيخ عثمان بن فودى السلطان المجاهد، وأخوه الأمير عبدالله ابن فودى، والشيخ السنوسى فى افريقيا وغيرها وكان سبباً فى خلاص المسلمين من الاحتلال الاستعمارى فى تركيا . وكذلك الشيخ عز الدين القسام وتلاميذه فى فلسطين .

ولولا تضافر الطرق الصوفية ومناهضهم للانكليز فى السودان لكان السودان الآن جزءا من الكومنولث الانكليزى

كل ذلك يعملونه لا لدنيا ولا لمنصب ولا للوصول إلى الحكم ؟

البحث مستمر

إلى رحمة الله

انتقل إلى رحمة الله السيد محمد الحنفى الجندى عضو النواب السابق وعم فضيلة الأستاذ حسين الدسوقى الجندى عضو مجلس الأمة السابق.

وأسرة المجلة تشارك فضيلته مصابه الأليم وتسأل الله للفقيد الرحمة وحسن المآب .